﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 208 - 210]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

السّلم بين بني الإنسان ضرورةٌ لتحقيق التّعايش والأمان

بَعْدَ ما بَيَّنَ ﷻ حالَ المفسدين الّذين يعيثون في الأرض فسادًا، ويُهلكون الحرثَ والنّسل، وفيهم منَ اللّدَد والعُنف والخصومة ما يُغْري بالعداوة، وينشرُ الفُرقة والانقسامَ؛ ناسب بعدها أن يبيّن واجبَ المصلحين؛ وهو السّلم بين بني الإنسان، والوحدة والوِفاقُ الحنيف بين أهلِ الإسلام، والتّحذيرُ ممّا يمنَعُ مِنَ الالتزام بذلك، وهذا ما يَقْتَضيهِ الإيمانُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾: السِّلم بالكسر: السّلامُ، والإسلام، والسِّلم: الصُّلحُ، يُفتح ويكسر، ويذكّر ويؤنّث، وأَصْلُهُ مِنَ الاسْتِسْلام، وهو الانْقيادُ، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208]، قُرئَ بالفتح وبالكسر، فقيل: هما بمعنى واحد وهو الصّلحُ، وقيل: بل هما مختلفا المعنى: فبالكسر الإسلامُ، وبالفتحِ الصّلحُ، فالسَّلمُ ضِدُّ الحرْب، والإسْلامُ: الدّخول في السّلم[1].

2) ﴿كَآفَّةٗ﴾: أصل الكَفّ: المَنْعُ، وكَفَّ الشَّيْءَ: مَنَعَ مِنْ أَخْذِهِ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم)، والرّاغب، المفردات: (سلم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/317، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/359، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سلم).

الـكَـفّ: المَـنْـعُ، وتُـسـتَـعـمـل (كـافّـة) بمعنى جميعًا

وكافَّةً: اسْمُ فاعِلٍ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنى: جَميعًا، وهو مِمّا لَزِمَ انْتِصابُهُ عَلى الحالِ، والهاء فيه للمبالغة؛ كقولهم: راوية وعلّامة ونسَّابة، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أي: ادخلوا جميعًا؛ اعتُبر فيها معنى الإحاطة، أو ادخلوا في جميع شرائعه[1].

الخُطُوات اسمٌ لتجاوزِ مَسافةٍ بـالـقَـدَم إلى الأمام، مبتعدةٍ عـن الـقـدم الأخرى

3) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: الخُطْوَةُ بالضّمّ: ما بين القدمين، وجمع القلّة خُطُواتٌ وخُطَواتٌ وخُطْواتٌ، وجمع الكثرة خُطًى، وقرئ بضم الطّاء وسكونها، والخَطْوَةُ بالفتح: المرة الواحدة، والجمع خَطَواتٌ بالتّحريك وخِطاءٌ، والفرقُ بين الخطوة بالضّمّ والفتح: أنَّ المفتوحَ مصدرٌ، دالةٌ على المَرَّة من خَطا يَخْطو إذا مَشى، والمضموم اسمٌ لِما بين القَدَمَيْن، كأنّه اسمٌ للمسافةِ بينهما وأصله تجاوزُ مَسافةٍ بالقَدَم إلى الأمام، مبتعدةٍ عن القدم الأخرى، ومعنى: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ طُرُقُه، أي لا تتّبعوا أثره، ولا تَسْلكوا الطّريق الَّذي يدعوكم إلَيه[2].

أصـل الـزّلّ زَلَـق الـقـدَم، ثـمّ استُعمل في الاعتقادات والآراء وغيرِها

4) ﴿زَلَلۡتُم﴾: الزَّلَّةُ في الأصل: استرسال الرِّجْلِ من غير قصْد، يقال: زَلَّتْ رِجْله تَزِلُّ زَلًّا وزلَلًا، والمَزِلَّةُ: المكان الزَّلِق، وقيل للذَّنب من غير قصد: زَلَّةٌ؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل، وأصل الزّلل في القدَم ثمّ يُستعمل في الاعتقادات والآراء وغيرِ ذلك؛ تشبيهًا على زلة الآراء والعقول بزلة الأقدام، ومعنى ﴿زَلَلۡتُم﴾ تنحّيتم عن القصد والشّرائع، وضلَلتم وعُجْتُم عن الحقّ[3].

5) ﴿يَنظُرُونَ﴾: النَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشّيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ والنَّظَرُ: الانْتِظارُ، يقال: نَظَرْتُهُ

(1) الرّاغب، المفردات: (كف)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/318، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كفف)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خطا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خَطُو-أ)، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/224، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطو).

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/280، والرّاغب، المفردات: (زلّ)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/283، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زلل).

وانْتَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ. أي: أَخَّرْتُهُ. ومعنى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظر التّاركون الدّخولَ في السّلم والمتّبعون خطوات الشّيطان إلّا العذاب يوم القيامة. والنّظر فعل يُستعمل على ضروب من المعاني، كلّها يرجع إلى أصل واحد، وهي طلب الإدراك منها: النّظر، بمعنى: الانتظار، كقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53] أي: غير منتظرين إدراكَه وبلوغَه[1].

الأصل في معنى لفظ (النّظر) طلبُ الإدراك، أو الرّويّةُ والانتظار

6) ﴿ظُلَلٍ﴾: الظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِّ (البارز للشّمس)، وهو أعمُّ من الفيء، فإنّه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إلَيه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشّمس، وقوله تعالى: ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلّة، يقال ظُلّة وظُلَل وظِلال، نحو خُلة وخُلَل وخِلال، وهي: شيءٌ كهيئة الصُّفَّة يُستظلّ به منَ الشّمس، وسمّي السّحاب ظلّة؛ لأنّه يَستظلّ به مَن تحته، وتحجب عنه ضوء الشّمس[2].

الظِّلُّ: الموضعُ الّذي لم تصلْ إلَيه الشّمس

7) ﴿ٱلْغَمَامِ﴾: الغَمُّ: ستر الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا للضّوء والشّمس، وهو ما غَمَّ السَّماءَ فَألبَسَها مِنْ سَحابٍ وقَتامٍ وغَيْرِ ذَلِكَ؛ مِمّا يَسْتُرُها عَنْ أَعْيُنِ النّاظِرينَ، وكُلُّ مُغَطًّى، فَإِنَّ العَرَبَ تُسَمّيهِ مَغْمومًا، وقوله: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ هو سحاب أبيض رقيق مثل الضّباب[3] وقَول اللّه جلّ وعزّ: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: فالغمام مَعْرُوف في كَلَام العَرَب، إلاّ أَنّا لَا نَدْرِي كَيفَ الغَمَام الَّذِي يَأْتِي اللّه جلّ وعزّ يَوْم القِيَامَة فِي ظُلَل مِنْهُ، فَنحْن نؤمن بِهِ، وَلَا نكيِّف صفته، وكَذَلِكَ سَائِر صِفَات اللّه جلّ وعزّ"[4].

الغَمَامُ: السَّحَابُ أَجْمَعُ، كَانَ فِيهِ مَطَرٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ

(1) الرّاغب، المفردات: (نظر)، الواحديّ، الوسيط: 1/313، والواحديّ، التّفسير البسيط: 4/95.
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلل)، وتفسير الرّاغب: 1/435، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ظلل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/698، والواحديّ: التّفسير البسيط: 16/467.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/156.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّهُ عبادَه المؤمنين أن يأخذُوا الإسلامَ بجُملته، ويعملوا بجميع شرائعِه، ويثبُتوا على طاعته، ويحافظوا على سِلمه ونقائه، وجمعِ كلمة المسلمين، ويحذروا من الانسياق وراء الشَّيطانِ، واتِّباعِ طرقه فيما يدعوكم إليه من المعاصي؛ فإنّه عدوٌّ يقود إلى التّفرقة والهلاك، ويُوقع في الزَّلل، ومن أصرَّ على الزّلل ومخالَفة تعاليم الإسلام وشرائعه، ومعاندة منهجه، بعد أن جاءتهم البراهينُ بصحّته وصدقِ نبيّه ﷺ، فلْيعلَموا أنَّ اللّه ﷻ لا يُعجِزه شيءٌ عن الانتقام منهم، ومجازاتهم؛ فإنَّه يقهَرُ مَن يشاء بقوَّتِه، ويعذِّب مَن أراد بمقتضى حِكمته، ثمّ يُنكر سبحانه وتعالى على هؤلاء الّذين زلَّت أقدامُهم عن طريق الحقِّ، من بعد ما جاءتهم الدّلائلُ البيِّنات، وزالت عنهم الشُّبهاتُ، إصرارَهم على زللهم، وكأنّهم بهذا ينتظرون موعدَ هلاكهم، وذلك يوم يأتي اللّه ﷻ – على الوجه اللائق به سبحانه – في ظُلَلَ من السَّحاب يوم القيامة؛ ليفصل بينهم بالقضاء العادل، وتأتي ملائكتُه، وحينئذ يقضي اللّه تعالى فيهم قضاءَه الحق، وإليه وحده تُرجع أمور الخلائق جميعها[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

خطابُ المؤمنين بالالتزام بالإسلامِ والثّباتِ علَيه:

دعـوةٌ للدّخولِ في السّلم كافّة بـعـيـدًا عـن الجدلِ والتّفرّق والخلافِ

تباينت أقوال المفسّرين فيمن توجّه إليه الخطابُ في قَوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجاءت هذه الأقوال وَفق ما يدخل في عموم المؤمنين: مَن أسلم من اليهود، وأهلُ الكتاب الذين آمنوا بكتابهم، وكفروا بالقرآن، والمنافقون الذين آمنوا بألسنتهم، والمؤمنون المخلصون[2]، وعادة القرآن أن يوجّه هذا الخطاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِلْمُسْلِمينَ، ولِأنَّ شَأن الاسم المَوْصولِ، أَنْ يَكونَ بِمَنْزِلَةِ المُعَرَّفِ بِلامِ العَهْدِ[3] وإذا كان الخطاب للمسلمين فما المراد بالسّلم الّذي دعاهم أن يدخلوا فيه؟

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 32.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/337 - 338.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/275.

قال الزّجّاج في هذا الوجه: المقصود: أمرُ المؤمنين بالثّبات على الإسلام، ويجوز أن يكون المعنى على هذا: يا أيّها المؤمنون المخلصون، ادخلُوا في المسالَمَةِ جميعًا، ولا تشتغلوا فيما بينكم بالجدل والخلاف المذهبيّ، حتّى لا تتفرّقوا إلى شيع وأحزاب يقتل بعضكم بعضًا، وقديمًا قال الطّغرائيّ، في وصيّته لأبنائه:

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِيَّ إِذَا اعْتَرَى *** خَطْبٌ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا آحَادَا

تَأْبَى القِدَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا *** وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَفْرَادَا[1]

الاستعارة التّصريحيّة في قَوله تعالى ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾:

الـدّخـول في السّلم: الثّباتُ على الإسـلامِ، حـاضـرًا ومُستقبلًا

لفظ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ في قَوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ اسْتَعارةٌ تصريحيّة؛ شبّه الاتِّباعَ والالتزام والتّمسّك بالدّخول، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة[2]، وحقيقَة الدُّخول نُفوذُ الجِسْم في جِسْم، أَوْ مَكانٍ مُحَوَّطٍ كالبَيْت والمَسْجِد، ويُطْلَقُ مَجازًا مَشْهورًا عَلى حُلولِ المكانِ الواسِعِ، يُقالُ: دَخَلَ بِلادَ بَني أَسَدٍ، والمقصود بأمرِ المؤمنين بالدّخول في السّلم: الثّبات على الإسلام، وأن يكونوا فيما يُستقبل من الزّمان علَيه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النّساء: 136]، وقد أمر بالإقامةِ على الإسْلام فقال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102][3].

توجيه القراءات القرآنيّة في لفظِ: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾:

الإسـلام دعـوة إلى السَّلام، في ظـلّ الـتّـعـارف والـتّـعـاون لا الصّدام

قَوله تعالى: ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بِكَسْرِ السّينِ وفَتْحِها مَعَ سُكونِ اللّام لغتان، وبهما قرأ القرّاء؛ فقرأ أبو عمرو البصريّ، وابن عامر، وعاصم وحمزة، ويعقوب، وخلف، بكسر السّين، وقَرَأَ نافِعٌ

(1) البيتان منسوبان إلى الطغرائي، وإلى ذي الإصبع العدوانّي وغيرهما، والأوّل أشهر، ينظر: ديوان الطّغرائي: (ت: 513هـ) ونسبة الطّغرائي إلى كتابة الطغراء، وللمؤرّخين ثناء عليه كثير، له (ديوان شعر - ط)، وأشهر شعره (لاميَّة العجم)، وينظر كذلك حسين بن محمد المهديّ، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: 1/86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/275.

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: -1/278 279.

وابْنُ كَثيرٍ، والكِسائِيُّ، وأَبو جَعْفَرٍ، بِفَتْحِ السّينِ[1]، ويطلقان على المسالمة وعلى الإسلام.

فَأَمّا الَّذينَ فَتَحوا السّينَ مِنَ ﴿ٱلسِّلْمِ﴾، فَإِنَّهُمْ وَجَّهوا تَأْويلَها إلى المُسالَمَةِ، بِمَعْنى: ادْخُلوا في الصُّلْحِ والمُساوَمَةِ، وتَرْكِ الحَرْبِ، وإِعْطاءِ الجِزْيَةِ، وأَمّا الَّذينَ قَرَؤُوا ذَلِكَ بِالكَسْرِ مِنَ السّينِ، فَإِنَّهُمْ مُخْتَلِفونَ في تَأْويلِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوَجِّهُهُ إلى الإِسْلامِ، بِمَعْنى ادْخُلوا في الإِسْلامِ كافَّةً، ومِنْهُمْ مَنْ يُوَجِّهُهُ إلى الصُّلْحِ، بِمَعْنى: ادْخُلوا في الصُّلْحِ[2]، ورجّح الطّبري أن يكون مَعْناهُ: ادْخُلوا في الإِسْلامِ كافَّةً؛ فَإِنَّ مَعْنى الإِسْلامِ ودَوامِ الأَمْرِ الصّالِحِ عِنْدَ العَرَبِ أَغْلَبُ عَلَيه مِنَ الصُّلْحِ والمُسالَمَةِ، وقال: قَدْ كانَ أَبو عَمْرِو بْنُ العَلاءِ، يَقْرَأُ سائِرَ ما في القُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ ﴿ٱلسَّلْمِ﴾ بِالفَتْحِ، سِوى هَذِهِ الّتي في سورَةِ البَقَرَةِ، فَإِنَّهُ كانَ يَخُصُّها بِكَسْرِ سينِها، تَوْجيهًا مِنْهُ لِمَعْناها إلى الإِسْلامِ، دونَ ما سِواها[3].

إطلاقُ السّلمِ على الإسلامِ، لأنّه الدّين الوحيد الكفيل بتحقيقِ السّلامِ

وحَقيقَةُ ﴿ٱلسِّلْمِ﴾: الصُّلْحُ والمسالمة، وإطلاقه على الإسلام من حيث إنّ أحكام الدّين الحنيف، تتّجه كلّها نحو تحقيق السّلام بين النّاس، وتخليص القلوب من أدرانها، وتوجيه النّاس نحو السّلامة، والبعد بها عن مواقع الهلاك[4]، ومعنى ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ على ما ذهب إلَيه قتادة ومن وافقه من المفسّرين: المسالمة والموادعة والصّلح، وهو يشمل مسالمةَ المسلمين فيما بينهم، فلا يفترقون، ولا يختصمون، ولا يتنازعون، حتّى لا يكون بأسُهم بينهم شديدًا، كما يشمل مسالمتَهم لغيرهم، فلا يعتدون على غيرهم، ما دام لم يُعْتَدَ علَيهم والسّلام بين المسلمين أمر يفرضه الدّين، وهو ممّا عُلم من الدّين بالضّرورة، أمّا مسالمة المسلمين لغير المسلمين، فالإسلام دعا إلى السّلام وحضّ علَيه، ومبدؤه العامّ التّعارفُ بين بني الإنسان لا التّنابذ بينهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]،

(1) ابن الجزَريّ، النشر: 2/227.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/597.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/597 - 598.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/650.

فما جاء الإسلام للحرب والخصام، بل جاء بالهدى والسّلام، ولكنَّ سلامَ الإسلام سلامٌ عزيزٌ قويّ، وليس بسلام ذليل ضعيف[1].

إعرابُ كلمةِ ﴿كَآفَّةً﴾ وتعيينُ صاحبِ الحالِ:

الإسلامُ اجتماعٌ بلا فرقةٍ، وأحكامُه كلٌّ بلا تجزئة

قَوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾: بِمَعْنى جَميعًا أو مجتمعين، وهو مِمّا لَزِمَ انْتِصابُهُ عَلى الحالِ[2]، وصاحب الحال: الفاعل في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، أو ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾، وإذا أخذنا معنى ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ في الآية، على قول أكثر المفسّرين، وهو: الإسلام؛ يكون المعنى على الوجه الأوّل من الإعراب: يا أيُّها الّذين آمنوا ادخلوا في الإسلام مجتمعين، غير متفرّقين ولا متنابذين، أي: انقادوا لأحكامه مجتمعين، لا يفرّقُكم أيّ سبب من أسباب الفُرقة؛ لأنّ وصف الإيمان جامعُكم، فإيمانُكُم يبعثكم إلى أن تكونوا طائعين منقادين للإسلام في اجتماع لا افتراق معه، ويوجبُ عليكم أن توحّدوا كلمتَكم، والمعنى على الوجه الثّاني، وهو أنّ لفظ ﴿كَآفَّةً﴾ حال من ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾، أي: ادخلوا في الإسلام بكلّ شرائعه وأحكامه، فلا تأخذوا بحكم وتتركوا حكمًا، فلا يصحّ أن يُؤخذَ بعضُ الإسلام، ويُتركَ بعضُه، ومن فعل ذلك كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضٍ، فأحكام الإسلام كلٌّ لا يقبل التّجزئةَ[3].

فائدةُ النّهي والتّحذيرِ عمّا يَصُدُّ عَنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ المأمورِ بِهِ:

الشّيطان يستدرجُ الإنسانَ إلى الشّر، حتّى يغرق فيه ويهلكَ

قَوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أسلوبُ نهي فيه تَحْذيرٌ مِمّا يَصُدُّهُمْ عَنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ المَأْمورِ بِهِ، وفائِدَتُهُ التَّنْبيهُ عَلى أَنَّ ما يَصُدُّ عَنِ الدُّخولِ في السِّلمِ، هُوَ مِنْ مَسالِكِ الشَّيْطانِ[4]، فقَوله: ﴿خُطُوَٰتِ﴾ الخُطُوات: جمع خطوة، بفتح الخاء وضمّها، وهي ما بين قدَمَي من يخطو، والمعنى: لا تتّبعوا سيرَ الشّيطان، وعبّر عنه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/651- 652.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/318.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/651.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/279.

بخطواته، لأنّ الشّيطان لا يجرّ المرءَ إلى الشّرّ دفعةً واحدة، بل يأخذه إلَيه درجةً درجةً وخطوةً بعد أُخرى؛ فيبتدِئ بأيسرِها وأصغرِها حتّى إذا ألِفَه جرّأه على ما هو أكبرُ منه؛ لذلك قالواْ في الحكمة: إنّ كثرةَ ارتكابِ الصّغائر تُجَرِّئُ على الكبائر[1].

دقّةُ الاستعارة التّمْثيليّة في اتِّباع الخُطُواتِ:

الاستعارةُ أبلغُ عبارةٍ عن التّحذير من طاعةِ الشّيطانِ

اتِّباعُ الخُطُواتِ استعارةٌ تَمْثيليَّةٌ، أَصْلُها أَنَّ السّائرَ إذا رَأَى آثارَ خُطواتِ السّائرينَ، تَبِعَ ذَلِكَ المَسْلَكَ، عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ ما سارَ فيهِ السّائرُ قَبْلَهُ، إلّا لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ لِلْمَطْلوبِ، فَشَبَّهَ المُقْتَدي الَّذي لا دَليلَ لَهُ سِوى المُقْتَدى بِهِ، وهُوَ يَظُنُّ مَسْلَكَهُ مُوَصِّلًا، بِالَّذي يَتَّبِعُ خُطواتِ السّائِرينَ، وشاعَتْ هاتِهِ التَّمْثيليَّةُ حتّى صاروا يقولونَ في الأمثال: هو يَتَّبِعُ خُطا فُلانٍ، بِمَعْنى يَقْتَدي بِهِ ويَمْتَثِلُ لَهُ[2]، قال الشّريف الرّضيّ: وهذه من شرائف الاستعارة، فهي أبلغُ عبارة عن التّحذير من طاعة الشّيطان فيما يأمر به، وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[3].

معنى اللّامِ في كلمة الشَّيطانِ إمَّا للجنسِ أو العهدِ:

اللّامُ في كلمةِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ إمَّا أن تكونَ لِلْجِنْسِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ لِلْعَهْدِ، ويَكونَ المُرادُ إبْليسَ، وهو أَصْلُ الشَّياطينِ وآمِرُهُمْ، فَكُلُّ ما يَنْشَأُ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّياطينِ فهو راجِعٌ إلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذي خَطا الخُطُواتِ الأُولى[4].

بلاغةُ التّذييلِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

أفادت (إنَّ) في قَوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾: مَعْنى التَّعْليلِ والرَّبْطِ؛ فهي في مِثْلِ هَذا تُغْني غَناءَ الفاءِ، وهو شَأْنُها بَعْدَ الأَمْرِ والنَّهْيِ[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/653، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 1/328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(3) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/118-119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.

وقدّم ﴿لَكُمْ﴾ ليفيد اختصاصَ عداوة الشَّيطانِ بالإنسانِ، فيكون على حذر من وساوسه، بالالتجاء إلى خالقه.

وصفةُ ﴿مُّبِينٌ﴾ معناهُ: الظّاهِرُ العَداوَةِ؛ مِنْ أَبانَ الَّذي هو بِمَعْنى بانَ، ولَيْسَ مِنْ أَبانَ الَّذي هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ، بِمَعْنى أَظْهَرَ[1]، وعداوة الشّيطان مقرّرة ثابتة من بدء الخليقة؛ لذلك فهو عدوٌّ مبين.

وجاء هذا التّذييل الّذي يحذّر من هذا العدوّ الظّاهرِ العداوةِ، المتحكّم في النّفس الأمارة، من أن تظهر آثارُ مآثمه التي يحرّض عليها، في تفريق الجماعة، وضياع الكلمة، وإصابة أهل الإسلام بالذّلّة، فيكون الضّرر محقّقًا بالأفراد والجماعات.

بلاغةُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾:

وقوعُ الزّلِ من المؤمنين شِبْهُ نادرٍ

حرفُ الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ تَفْريعٌ عَلى النَّهْيِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وحرف ﴿فَإِن﴾ للشَّرطِ، وتقديرُ الشّرط: فَإِن اتَّبَعْتُمْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَزَلَلْتُمْ، أَوْ فَإِنْ زَلَلْتُمْ فاتَّبَعْتُمْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ، وجيءَ في الشَّرْطِ بِإِنْ التي تفيد الشّكّ ليفيد نُدْرَة حُصولِ هَذا الزَّلَلِ مِنَ الَّذينَ آمَنواْ، وفيه ترغيبٌ وحثٌّ على الاستقامة على منهج الله[2].

اسْتعْمالُ الزَّلَل مَجازًا على سبيلِ الاستعارةِ التَّمْثيليّة:

تشبيهُ ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطانُ بالطَّريقِ المَزْلَقَةِ عَلى سبيلِ الاستعارةِ المَكْنِيَّةِ

وأَصْلُ الزَّلَلِ الزَّلَقُ أَي اضْطِرابُ القَدَمِ وتَحَرُّكُها في المَوْضِعِ المَقْصودِ إِثْباتُها بِهِ، واسْتُعْمِلَ لفظُ ﴿زَلَلْتُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، مَجازًا في الضُّرِّ النّاشِئِ عَنِ اتِّباعِ الشَّيْطانِ على سبيل الاستعارة التَّمْثيليّة؛ فقد شُبِّهَتْ هَيْئَةُ مَنْ يَعْمَلُ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ بِهَيْئَةِ الماشي عَلى أَثَرِ غَيْرِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/279- 280.

وشُبِّهَ ما يَعْتَريهِ مِنَ الضُّرِّ في ذَلِكَ المَشْيِ بِزَلَلِ الرِّجْلِ في المَشْيِ في الطَّريقِ المُزْلَقَةِ[1]، وفيه تشبيه ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطانُ بِالطَّريقِ المُزْلَقَةِ عَلى سبيل الاستعارة المَكْنِيَّةِ، وفي الفعل ﴿زَلَلْتُم﴾ عدولٌ عن المضارع إلى الماضي، تحذيرًا لمن وقع منهم في الزّلل، بلحوق الوعيد بهم.

تأنيثُ فعلِ المجيءِ مع البيناتِ بحسبِ السِّياقِ:

تـأتي البَيِّـنـاتُ بمعنى المُعْجِزات وبمعنى الأوامر والنَّواهي

جاء قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ بالتّأنيث؛ يؤنّثُ الفعلُ مع البيّنات إذا كانت الآيات تدلّ على النّبوّات، بينما جاءت في آياتٍ أخرى بالتّذكيرِ مثل قَوله تعالى: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، فالبيّنات بمعنى الأمر والنّهي، فيُذكّر الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 86][2].

بلاغةُ التحذيرِ والوعيدِ في قولِه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾:

معـرفـةُ صفات العزَّةِ والحكمةِ تؤولُ إلى معرفةِ اللَّازمِ

الفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ واقعةٌ في جَوابِ الشَّرْطِ ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، مفعول ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، والمَقْصودُ أن يعلموا لازمَه؛ فَكَأَنَّهُ تَعالى قالَ: فاعْلَموا أَنَّهُ يُحِلُّ بِكُمُ العِقابَ[3]، ولفظ ﴿عَزِيزٌ﴾ فَعيلٌ مِنْ عَزَّ إذا قَوِيَ ولَمْ يُغْلَبْ، فَكانَ العِلْمُ بِأَنَّهُ تَعالى عَزيزٌ، مُسْتَلْزِمًا تَحَقُّقَهُمْ أَنَّهُ مُعاقِبُهُمْ لا يُفْلِتُهُمْ، لِأَنَّ العَزيزَ لا يَنْجو مَنْ يُناوِئُهُ ولفظ ﴿حَكِيمٞ﴾ صيغة مبالغة، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمَ فاعِلٍ مِنْ حَكَمَ، أَيْ: هو قَوِيُّ الحُكْمِ، ويُحْتَمَلُ أَنَّهُ المُحْكِمُ لِلْأُمورِ فَهُوَ مِنْ مَجيءِ فَعيلٍ بِمَعْنى مُفْعِلٍ، ومُناسَبَتُهُ هُنا أَنَّ المُتْقِنَ لِلْأُمورِ، لا يُفْلِتُ مُسْتَحِقَّ العُقوبَةِ، فالكَلامُ وَعيدٌ، وإلّا فَإِنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/280.
(2) فاضل السّامرّائي، أسرار البيان في التّعبير القرآني: (محاضرة مفرَّغة- الشّاملة).
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/280.

نكتةُ تقديمِ صفةِ ﴿عَزِيزٌ﴾ على صفةِ ﴿حَكِيمٌ﴾:

التّذييلُ بَيانٌ لِلحُجَّةِ، وتَقْريرٌ لِلبُرْهانِ بما لم يُعهد في كلامِ إنسانٍ

قدّم صفةَ ﴿عَزِيزٌ﴾ على صفةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ لأنّه تعالى عَزّ فحكم؛ والعزيز: لا يُغالَب، وهو قادرٌ لا يمتنع عليه شيءٌ، والحكيم: المدبّر الّذي يُحْكِم الصّنعَ، ويُحسن التّدبيرَ، فتكون القدرة مقدّمةً على حسن التّدبير، وجاءت هذه الآية على وجه التّهديد والوعيد، وهذا أبلغُ في إثبات الرّوع والمهابة، ولو أنّ نوعَ العذاب جاء محددًا ما بلغ في الحسن مبلغَ قوله ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾، أي: غالب لا يُعجزه الانتقام منكم، حكيمٌ لا ينتقم إلّا بحقّ[1]، فجاء هذا التّذييل بأَبْلَغِ تعْبير؛ لِأَنَّهُ بَيانٌ لِلْحُجَّةِ، وتَقْريرٌ لِلْبُرْهانِ بِالإشارَةِ إلى مُقَدِّماتِهِ اكْتِفاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ النَّتيجَةِ، وهو مِنْ ضُروبِ إيجازِ القُرْآنِ الّتي لَمْ تُعْهَدْ في كَلامِ إنْسانٍ[2].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريّ والالتفاتِ البلاغيّ في: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾:

إيثـارُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ على (ينتظرون) لِلدّلالةِ على تمثّلٍ يُشبه النّظرَ بالأبصار.

في قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: عبارة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ وهي استفهامٌ إنكاريٌّ، أفادتْ نفيًا في المعنى؛ لذا وقع بعده الاستثناءُ المفرّغ[3]، والمراد ما ينتظر التّاركون للدّخول في الإسلام، والزّالّون والمتّبعون خطواتِ الشّيطان إلّا أن يأتيهم، فهو التفاتٌ منَ الخطاب إلى الغَيبة لتجديد نشاط السّامع، وللإيذانِ بأنّ سوءَ صنيعهم موجبٌ للإعراض عنهم، وحكاية جنايتِهم لما عداهم من أهل الإنصاف على طريق الإهانة[4]، وهذا من أساليب القصر بالنّفي وإلّا قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، من النَّظَر بمعنى: الانْتِظار والتَّرَقُّب، يُقالُ: نَظَرَهُ بِمَعْنى تَرَقَّبَهُ، لِأَنَّ الذي يَتَرَقَّبُ أَحَدًا يُوَجِّهُ نَظَرَهُ إلى صَوْبِهِ ليرى شخصَه عِنْدما يَبْدو.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/212.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/208.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/296.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 1/421، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/281.

وآثر ﴿يَنظُرُونَ﴾ على: (ينتظرون)؛ لأنّ الانتظارَ ترقُّبٌ ذهنيٌّ، والنّظر رؤيةٌ بالبصر، وسرُّه البلاغيّ أنّ يوم القيامة لورود الأخبار الصّادقة به، كأنّه ماثلٌ أمامهم ينظرون إليه بأبصارهم الآن، ومفعولُ: يَنْظُرونَ، هو ما بَعْدَ إلّا، أَيْ: ما يَنْتَظِرونَ إلّا إتْيانَ اللَّهِ[1]، وهذا فيه تهديدٌ ووَعيدٌ.

إسْنادُ الإتْيان إلى اللَّهِ تَعالى في هذه الآيَةِ على وَجْهِ إثْباتِ الصّفة:

الإتْيانُ ثابتٌ لِلَّهِ تَعالى، بِلا كَيْفَ

أُسْنِدَ الإتْيانُ إلى اللَّهِ تَعالى في قَوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، على وَجْهِ الإثْباتِ، فاقْتَضى ظاهِرُهُ اتِّصافَ اللَّهِ تَعالى بِهِ، فنؤمن به كما ورد، وقد ذَهَبَ سَلَفُ الأُمَّةِ إلى إقْرارِ الصِّفاتِ المُتَشابِهَةِ دونَ تَأْويلٍ، فَالإتْيانُ ثابتٌ لِلَّهِ تَعالى، لَكِن بِلا كَيْف، فهو مِنَ المُتَشابِهِ كالاسْتِواءِ والنُّزولِ والرُّؤْيَةِ، أَيْ: هو إتْيانٌ لا كَإتْيانِ الحَوادِثِ[2]، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: 11]، وفي قراءة ابن مسعود: (إلّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ والملائكةُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمام)؛ ففي الآيَةِ تَقْديمٌ وتَأْخير، وأَصْلُ الكَلام أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ والمَلائِكَةُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ؛ فالغَمامُ ظَرْفٌ لإتْيانِ المَلائِكَةِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِه تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾:

مجيءُ العذابِ في ظُلَلٍ من الغَمامِ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّةُ

قَوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: الظُّلَلُ: جَمْعُ ظُلَّةٍ، وهي ما يُسْتَظَلُّ بِهِ مِنَ الشَّمْسِ، والظُّلَّةُ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَهُ[4]، والغَمام من الغمّ وهو في الأصل: ستر كلّ شيءٍ؛ واحده غَمامَةٌ: وهي السَّحابَةُ عامَّةً، أَو البَيْضاءُ مِنها؛ سُمِّيتْ لأنَّها

(1) أبو حيّان الأندلسّي، البحر المحيط: 2/343، وابن عاشور، المصدر السّابق: 2/283، وعبد العظيم المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/284.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/284، وابن عاشور، المصدر السّابق: 2/286.
(4) الرّاغب، المفردات: (ظلل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ظلل).

تحجب السّماءَ وتمنع ضوءَها أو الشّمسَ وحرّها[1]، والمعنى في سحاباتٍ عَظيمَة تُشْبِهُ كُلُّ سَحابَةٍ مِنْها ظُلَّةَ القَصْرِ، وهي هُنا مُسْتَعارَةٌ أَوْ مُشَبَّهٌ بِها تَشْبيهًا بَليغًا[2]، وتنوين التّنكير في ﴿ظُلَلٍ﴾ للتّهويل، وإنّما ذكر ﴿ٱلْغَمَامِ﴾ ليكون أهول، فإنّ الأهوالَ تُشَبَّه بظلل الغمام، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32] وفي قوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّةُ؛ لأنّ الغمام سببُ الرّحمة لا العذاب، واختيار الغمام أن يأتي من قبله العذابُ؛ لأَنَّ الغَمامَ مَظِنَّةُ الرَّحْمَةِ، فَإذا نَزَلَ مِنْهُ العَذابُ، كانَ الأَمْرُ أَفْظَعَ، لأنّ الشّرّ إذا جاءَ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ، كانَ أَهْوَلَ وأَفْظَعَ، كَما أَنَّ الخَيْرَ إذا جاءَ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ كانَ أَكْثَرَ تَأْثيرًا في السُّرورِ، فَكَيْفَ إذا جاءَ الشَّرُّ مِنْ حَيْثُ يُحْتَسَبُ الخَيْرُ، ومِنْ هَذا اشْتَدَّ عَلى المُتَفَكِّرينَ في كِتابِ اللَّهِ تَعالى، قَوْلُهُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: 47]؛ فإنّ تفسيره عَلى ما قالوا: عملوا أعمالًا حسبوها حسناتٍ، فإذا هي سيئاتٌ، وذلك لتجويزهم أن يكون عملهم كَذَلكَ، فيجيئهم الشّرّ من حيث توقّعوا الخير، فخافوا من ذلك، كما أَنَّ نُزولَ الغَمامِ عَلامَةٌ لِظُهورِ ما يَكونُ أَشَدَّ الأَهْوالِ في القِيامَةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 25 - 26][3].

تعدُّدُ احتمالاتِ عودِ الضّميرِ الفاعل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾:

التَّعجُّبُ والإنكارُ وتوبيخُ المشركين على معتقدِهم في الله تعالى

جاء ضَميرُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ليستوعب كُلَّ الاحْتِمالاتِ الّتي لا تَتَنافى فهو يصلح أن يعود على: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، و﴿يَشْرِى﴾، و﴿ٱدْخُلُواْ﴾، و﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، و﴿زَلَلْتُم﴾.

فَإنْ كانَ الضَّميرُ لِـ﴿مَنْ يُعْجِبُكَ﴾ أَوْ ﴿لَهُ﴾ أولِ ﴿مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ﴾، فالجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ، فقد يسأل سائل عن هاتَيْنِ الحالَتَيْنِ: ما جَزاء الفَريقَيْنِ؟ فَيَكونُ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، جَوابًا لِذَلِكَ؛ والفريق الأوّل يَنْتَظِرُهُ شَكًّا في الوَعيدِ بِالعَذابِ، والفَريقُ الآخَرُ يَنْتَظِرُهُ انْتِظارَ الرّاجي لِلثَّوابِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (غمم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غمم)، والزّبيديّ، تاج العروس: (غمم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غمم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/284.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/360، وحاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 5/164.

وإنْ كانَ الضَّميرُ راجعًا إلى الَّذينَ آمَنواْ، فَجُمْلَةُ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ، لِلتَّحْريضِ عَلى الدُّخولِ في الإسْلامِ خَشْيَةَ يَوْمِ الجَزاءِ، أَوْ طَمَعًا في ثَوابِهِ.

وإنْ كانَ الضَّميرُ لِلَّذينَ زَلّواْ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ [البَقَرَة: 209]، فالجُمْلَةُ بَدَلُ اشْتِمالٍ مِنْ مَضْمونِ جملَة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 209]؛ لِأَنَّ مَعْناهُ: فَإنْ زَلَلْتُمْ، فاللَّهُ لا يُفْلِتُكُمْ لِأَنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ، وعَدَمُ الإفْلاتِ يَشْتَمِلُ عَلى إتْيانِ أَمْرِ اللَّهِ والمَلائِكَةِ وإنْ كانَ الضَّميرُ عائِدًا إلى أهل الكتاب، فَهُوَ تَوْبيخٌ لَهُمْ عَلى مُكابَرَتِهِمْ عَنِ الاعْتِرافِ بِحَقِّيَّةِ الإسْلامِ[4].

وقد وجّه بعضُ المفسّرين إتيانَ اللّه سبحانه وملائكته في هذا الموضع، إلى معنى آخر، وهو أنّ أولئك المشركين قد كفروا، مع أنّ الحُجّة قاطعةٌ، والبيّناتِ دامغةٌ، والحقّ واضحٌ أبلجُ، والرّسول ﷺ بين ظهرانَيْهم قد عُرف طولَ حياته بالصّدق والأمانة، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البيّنات، فهل ينتظرون أن يأتيهم اللّه هو وملائكتُه في ظُلَل من الغمام، لكي يؤمنواْ برسالة محمّد ﷺ بعد أن يشاهدواْ اللّه وملائكتَه! وكانواْ قد طلبوا أن ينزل مَلَكٌ من السّماء برسالة محمّد ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 8- 9]، فالاستفهام حينئذ للتّوبيخ واللّوم مع النّفي؛ أي أنّ حالَهم حالُ من لا يريدون أن يؤمنوا، إلّا بعد أن يُعاينوا ويَروا اللّه وملائكتَه جهرةً؛ كما قالواْ للنّبيّ ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 90- 92]، وكما قال بنو إسرائيل لنبيّهم موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، ومعنى ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: انتهى الأمرُ عند هذه المعجزة الّتي جاء بها محمّد ﷺ[2].

توجيه القراءاتِ القرآنيّة:

اختلف القرّاءُ في قَوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقرأَ أَبو جَعْفَرٍ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بالجرِّ عَطْفًا عَلى ﴿ظُلَلٍ﴾، أي: في ظُلَلٍ منَ الغمام، وفي ظُلل من الملائكة، أي: جماعات من الملائكة

(4) الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/281 - 282.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/656.

وقَرَأَهُ باقي القرّاء ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالرَّفْعِ عَطْفًا عَلى اسْمِ الجَلالَةِ، وإسْنادُ الإتْيانِ إلى المَلائِكَةِ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَأْتونَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ عَذابِهِ، وهُمُ المُوكَلُ إلَيْهِمْ تَنْفيذُ قَضائِهِ[1].

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

تـــردُّدُ الـــواو بـين الـعـطـفِ والاستـئـنـافِ والحالِ

جملةُ ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ إمَّا أن تكونَ معطوفةً عَلى قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾، أو أن تكونَ جملة مستأنَفة، جيء بها للدّلالة على أنّ مضمونها واقعٌ لا محالة؛ أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكُهم، أو جملة حاليّة، أي: هل ينتظرون إلّا أن يأتيهم العذاب والملائكة، والحال أنّه قد قضي أمرُ هلاكهم وتدميرهم، فلا يمكن ردُّه[2].

سرُّ العدولِ عن صيغةِ المُضارعِ إلى الماضِي:

الـدّلالـةُ على تـحـقّـقِ الأمـرِ، وكأنّه قد وَقَعَ

بني الفعل الماضي: ﴿وَقُضِيَ﴾ للمفعول في قَوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فَهُوَ مِنْ وَضْعِ الماضي مَوْضِعَ المُسْتَقْبَلِ، وإنّما عُدِل إلى صيغة الماضي، دلالةً على تحقّقه، فكأنّه قد وقع، والتَّقْديرُ: وهل ينتظرون إلّا أن يُقضى الأمرُ بهلاكهم.

معنى الألفِ واللّام في كلمةِ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

والألف واللّام في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾، إمّا لِلْجِنْسِ، ويُراد مِنْهُ الاسْتِغْراقُ أَيْ قُضِيَتِ الأُمورُ كُلُّها، وإمّا لِلْعَهْدِ أَيْ أَمْرُ هَؤُلاءِ أَيْ عِقابُهُمْ، أَوِ الأَمْرُ المَعْهودُ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ وهو الجَزاءُ[3].

مـــن جـــوامـــع الـكـلـم إيـجـازُ القِصَر في قَوله (وقضي الأمر)

وبناء الفعل: ﴿وَقُضِيَ﴾ للمفعولِ، وجعْل نائبِ الفاعل فيه ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ من جوامع الكلم، فما أكثر الأمور الّتي سيقضي الله فيها يوم القيامة، دلّ عليها القرآن هنا بكلمة واحدة هي ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ كما أنّ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ يَنْدَرِجُ في ضِمْنِها جَميعُ أَحْوالِ العِبادِ، مُنْذُ خُلِقوا إلى

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/124، وابن الجزَريّ، شرح طيّبة النّشر، ص: 194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/345، والهرَريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/241، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 1/330.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.

يَوْمِ التَّنادِ، ومِنْ هذا اليَوْمِ إلى الفَصْلِ بَيْنَ العِبادِ، وهذا من إيجاز القِصَر[1]، والآية فيها تهديدٌ ووعيدٌ، لمن ينصرفُون عن الدّخولِ في الإسلام، ويعطّلون مسيرته.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التّصريحُ باسمِ الجلالةِ لعظمةِ ما يرجعُ إليه

صُرِّحَ بِاسْمِ اللَّهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ولم يقل: (وإليه ترجع الأمور)؛ لِأَنَّهُ أَفْخَمُ وأَعْظَمُ وأَوْضَحُ.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، على الفعل لقصر الصّفة على الموصوف، وقد أفاد تأكيد المعنى والاخْتِصاص؛ فاخْتُصَّ بِذَلِكَ اليَوْمِ لِانْفِرادِهِ فيهِ بِالتَّصَرُّفِ والحُكْمِ والمُلْكِ[2]، أي: إليه وحدَه مردُّ الأمور كلّها فما شاء فعل، وأمورُ جميع العباد، ترجع إليه في الدّنيا والآخرة، وقد يوحي ردُّها إليه يوم القيامة، أنّها لم تكن له من قبل! لكنّ الغرضَ من تأكيدها بذلك اليوم: إعلامُ الخلق بأنّه المنفردُ بالمجازاة في أمر الحساب، على الأعمال بالثّواب والعقاب، أي إليه وحده تصيرون فيعذّب من يشاءُ، ويرحم من يشاءُ[3]، ولرفع إبهام ما كانَ عليه مُلوكُ الدُّنْيا مِنْ دَفْعِ أُمورِ النّاسِ إلَيْهِمْ، فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذا لا يَكونُ لَهُمْ في الآخِرَةِ مِنْها شَيْءٌ، بَلْ ذَلِكَ إلى اللَّهِ وَحْدَهُ، أَوْ لِإعْلامِ أَنَّها رَجَعَتْ إلَيْهِ في الآخِرَةِ بَعْدَ أَنْ كانَ مَلَّكَهُمْ بَعْضَها في الدُّنْيا، فَصارَتْ إلَيْهِ كُلُّها في الآخِرَةِ[4]، ولمّا عبَد قومٌ غيره في الدّنيا، أضافوا أفعاله تعالى إلى هؤلاء المعبودين بغير حقّ، فإذا كان يوم القيامة وظهرت الحقائق، ردّواْ إلى اللّه ما أضافوه إلى غيره في الدّنيا[5].

تقديمُ الجارِّ والمَجرورِ على الفعلِ، لقَصْرِ الصّفةِ على الموصوفِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346- 347، وعبد العظيم المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/121.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/347.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

اختلف القرَّاءُ في قولِه تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على قراءتَيْن: الأولى: ﴿تُرْجَعُ﴾ بالبناء لِلْمَفْعولِ، قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر؛ عَلى أَنَّ: رَجَعَ، متعدٍّ، ومصدره الرّجْع، أَيْ: يُرْجِعُ الأُمورَ راجِعُها إلى اللَّهِ، وحُذِفَ الفاعِلُ على هَذا لعَدَم تَعَيُّنِ فاعِلٍ عُرْفِيٍّ لِهَذا الرَّجْعِ، أَوْ حُذِفَ لِدَفْعِ ما يَبْدو مِنَ التَّنافي بَيْنَ كَوْنِ اسْمِ الجَلالَةِ فاعِلًا لِلرُّجوعِ ومَفْعولًا لَهُ بِحَرْفِ إلى، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ نائب فاعل تُرجَع.

الثّانية: ﴿تَرْجِعُ﴾ بالبناء للفاعل، قرأ بها ابنُ عامر وحمزةُ والكسائيّ ويعقوبُ وخلف، عَلى أَنَّ: رَجَعَ، لازِمٌ، ومصدره الرّجوع، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ فاعل تَرجِع[1].

التّذييلُ تأكيدٌ لنفاذِ أمره وشمولِ قدرتِهِ وقهرِهِ

هذه الجملة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ خبريّة، أريد بها تربيةُ المهابة في النّفوس وفي هذا، إنذارٌ بليغ بعد التّهديد السّابق، وفيه تنبيهٌ للغافلين الضّالّين، إلى أنّ مرجعَهم في الآخرة، إلى الله وحده، والجملةُ الكريمةُ تذييلٌ قُصد به تأكيدُ قضاءِ أمره، ونفاذِ حُكمه، وتمامِ قدرته.

(1) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/208، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»